

عَلَّامَةُ الْعَالَمِينَ
عَلَّامَةُ الْعَالَمِينَ

حسب كتابات راهب أرثوذكسي من القرن الرابع عشر

رامي فيتالي

مقدمة

القديس غريغوريوس بالاماس (١٢٩٦ - ١٣٥٩) راهبٌ مشهور في الكنيسة الأرثوذكسية، حتّى أنّ الكنيسة قد خصصت الأحد الثاني من الصوم الكبير لتذكاره^١، وهو بالرغم من كونه راهباً عاش السيرة الرهبانية بكل ما تقتضيه من عزلة وتفرّغ للصلاة والصوم، تظهر كتاباته بالإضافة لقيمتها الروحية العظيمة علمه الواسع وقدرته الكبيرة على المحاجة العلمية المنطقية، ويعود ذلك بدرجة كبيرة إلى نشأته قبل الترهّب، فقد ولد في عائلة أرستقراطية، وعندما توفي والده كان غريغوريوس في السابعة من عمره فتعهّده الامبراطور البيزنطي أندرونيك الثاني وتربّى في البلاط القسطنطيني، وحصل هناك على مختلف أنواع الدروس المألوفة في أيامه ولمع فيها، وفي العشرين من عمره قرّر اعتناق سيرة الرهبنة.

مقالاته التي سنناقشها هنا كتبها في فترة ما بين العامين ١٣٣٦ و ١٣٤٧ حين كان ناسكاً في جبل آثوس قبل أن يُرسم مطراناً على مدينة تسالونيك، وقد كتبها رداً على طروحات شخص يدعى برلعام.

المراجع التي تتكلم عن برلعام تقول أنه يوناني الأصل وقد قدم إلى القسطنطينية عام ١٣٣٠ من كلابريا (جنوب إيطاليا)، وسرعان ما برز في القسطنطينية عالماً وفيلسوفاً، ولكن عندما بدأ بتعاطي اللاهوت كان تعليمه مخالفاً لفكر الكنيسة الشرقية وهنا بدأ الراهب بالاماس بكتابة الرسائل أولاً رداً على طروحات برلعام، ولكن حين لم يتوقف برلعام بل بالعكس حاول نشر أفكاره بين المؤمنين والرهبان وبدأ يهاجم الطرق الرهبانية، فحينئذٍ باشر بالاماس في نشر ثلاثياته^٢ للدفاع عن الفكر الرهباني.

كانت إحدى طروحات برلعام تتمحور حول فكرة توحيد الفلسفة الدنيوية مع الفلسفة الدينية، وحتى الوصول إلى القول أن الفلسفة الطبيعية بحد ذاتها قادرة أن تطهّر الإنسان وتخلصه من الخطيئة.

الشيء المثير هنا والذي لا أعرف إن كان أحد قد سبق له ولاحظه أنّ طروحات برلعام قريبة إلى درجة كبيرة من طروحات فيلسوف شهير عاش في القرن الثاني عشر في إسبانية وهو ابن رشد، ابن رشد

^١ أعلنت قداسته من قبل المجمع القسطنطيني عام ١٣٦٨ أي بعد تسع سنوات فقط على وفاته، وخصّص الأحد الثاني من الصوم للاحتفال بتذكاره.

^٢ وهي ثلاثة كتب يتألف كل منها من ثلاثة مقالات، وهي منشورة باللغة العربية من قبل دير القديس جاورجيوس - الحرف - لبنان سنة ١٩٩٥، وهو المرجع الذي اعتمدت عليه هذه الدراسة.

رفض فكرة تكفير الفلسفة والفلاسفة التي طرحها الإمام الغزالي، ولكن من جهة أخرى لم يفرّق بشكل حاسم بين الفلسفة وبين علوم الدين بل اعتبرهما واحداً تقريباً وبرلعام حاول تطبيق نفس المذهب على الدين المسيحي وهنا لقي معاندة كبيرة في الشرق لاسيما من الراهب غريغوريوس بالاماس.

المعروف أن فكر ابن رشد، والذي يمتد إلى علم المنطق والفقه ومجالات علمية أخرى كثيرة أثار تأثيراً كبيراً في أوروبا في تلك الفترة، حتى أنه ظهر مذهب فكري قوي تمركز في فرنسا وإيطاليا امتد تأثيره من القرن الثالث عشر وحتى السادس عشر أو السابع عشر، أُطلق عليه "الرشدية" (**Averroism**) نسبة إلى ابن رشد، وكان هذا المذهب مرفوضاً من قبل كنيسة روما حينها، واعتبره البعض بداية الفكر التنويري الغربي.

من غير المنطقي إذاً أن نفترض أن كون برلعام قد قدم من جنوب إيطاليا في الفترة التي كان فيها لابن رشد تأثير كبير فيها، وأن فكره كان مشابهاً كثيراً لطروحات ابن رشد، أن ذلك كله كان مجرد صدفة، بل يمكن القول وبكثير من الثقة أنه كان لفكر ابن رشد تأثير كبير على برلعام.

طبعاً لا يمكن اعتبار كتابات غريغوريوس بالاماس رد مباشر على ابن رشد لكنها رد على من يحاول تطبيق فلسفة ابن رشد على الدين المسيحي، فقد تكون آراء ابن رشد مقبولة في الإسلام بخلاف المسيحية؛ ذلك أن المسلمين (على الأقل أهل السنة) يقولون بانقطاع الوحي الإلهي بعد النبي محمد فهو آخر الأنبياء، وكل فتوى دينية تستند في النهاية على القرآن أو حديث النبي محمد وسيرة حياته، وما لم يذكره القرآن أو الحديث مباشرةً أو شابه حادثاً في حياة النبي محمد لقي جواباً في القياس وغيره من الطرق التي لا تختلف كثيراً عن الطرق المتبعة في العلوم من الاستدلال والتحليل، بالإضافة إلى أسئلة عقائدية كثيرة لم يذكر عنها القرآن شيئاً مثل علاقة الخالق بالخليقة أو خلق القرآن لم يطرح المسلمون أحوبة عنها إلا بالفلسفة العقلية.

أما في المسيحية ليس هناك انقطاع في العلاقة المباشرة بين الله وكل إنسان مسيحي مؤمن، وكل إنسان مسيحي مؤمن وصل إلى درجة معينة من القداسة والتقوى قادر على معرفة مشيئة الرب، فإذا

عرّفنا النبي بأنه الشخص الذي يعرف مشيئة الرب وينقلها إلى الآخرين بالكلام أو السلوك فإن كل إنسان مسيحي مؤمن هو بهذا التعريف نبي.

لكن من جهة أخرى يمكن القول أن مؤلفات غريغوريوس بالاماس حول الحكمة تشكّل ردّ المسيحية الشرقية على أهم المسائل الفلسفية التي كانت مطروحة في زمانه وهي علاقة العلم (الفلسفة) بالدين، وقد قدم تفصيلاً في هذا المجال لم يقدمه أحد من قبله، فهو قد تحدّث عن حكمة شيطانية وحكمة طبيعية وحكمة إلهية، وفصل فيما بينها بشكل واضح لا يدع مجالاً للالتباس، وأظهر فائدة وغاية كل منها.

ولا ننس كذلك الجزء من ثلاثيات بالاماس الذي تعرض لموضوع قوى الله وكونها مخلوقة أو غير مخلوقة موضوع معانية الله، وحوى الكتاب أيضاً مواضيع لاهوتية عميقة مختلفة، لكننا هنا لن نتعرض إلا إلى ماله علاقة بموضوع علاقة العلم بالدين.

أيضاً من المثير في أمر الربط بين رد بالاماس وأفكار ابن رشد أن أفكار ابن رشد المسلم جاءت من الغرب (إسبانية) ومرّت عبر أوروبا كلّها حتّى وصلت إلى الشرق، بينما رد بالاماس المسيحي جاء من رحم اللاهوت المسيحي الأرثوذكسي الشرقي من الشرق، وهذا ما يدل بقوة على أن ربط علاقة الشرق بالغرب دائماً بالعلاقة بين الإسلام والمسيحية على الترتيب هو أمر غير صحيح إطلاقاً، مع ذلك يبدو أنّه يمكننا دائماً المقابلة بين شرق روحاني وغرب عقلائي سواء كان ذلك في المسيحية أم في الإسلام.

أيضاً يجدر التنويه إلى أنّ غريغوريوس بالاماس شخصياً لم يكن غريباً عن الإسلام حيث أنّه أوقف حوالي السنة من قبل الأتراك أثناء سفره عام ١٣٥٤ وأشاد وقتها بحسن معاملة الأتراك وأبدى اهتماماً بالإسلام وانفتاحاً على المسلمين، ويُذكر أنّه كان يتناقش وديّاً مع اسماعيل حفيد الأمير التركي أورخان في مسائل لاهوتية.

لم يكن بالاماس أول مفكر مسيحي شرقي تكلم عن علاقة الدين بالفلسفة، بل قد سبقه إلى ذلك في القرن الرابع الميلادي القديس الشهير باسيليوس الكبير، الذي يستشهد به بالاماس بغزارة في معرض

حديثه عن هذا الموضوع، ويتفق الاثنان على أن في الفلسفة ما هو جيد وما هو رديء، إلا أن طروحات بالاماس أقرب إلينا من باسيليوس بسبب اختلاف الزمن الذي طرح كل منهما أفكاره فيه، ففي زمن باسيليوس لم تكن الفلسفة البشرية قد تحررت بعد من عباءة الوثنية وكان التفريق بين الاثنين أمراً كثيراً الصعوبة، أما في زمن بالاماس وبعد مرور ثلاثة عشر قرناً على ظهور المسيحية فكان هناك شيء واضح مستقل اسمه الفلسفة لا علاقة له بالوثنية. لكن أيضاً زمن بالاماس يختلف عن زماننا، فهو يتكلم عن فلسفة وعلم فكري بعيد عن التجريب، وإن وجدت تطبيقات علمية عملية في مجالات محددة كالمهندسة والفلك (للملاحظة) والطب، إنما لم تكن معروفة الآلات التي تعمل بنفسها ولا المحركات ولا الأدوات الكهربائية والإلكترونية ... الخ، لذلك من غير الممكن أن نجد في كلامه شيئاً يتعلّق مثلاً بالمنتجات التقنية، كذلك لم يكن العلم وقتها وصل إلى مرحلة تطرح تساؤلات أخلاقية عميقة كالاستنساخ، ولذلك الكنيسة الشرقية مدعوة اليوم لأن تقدم إجابتها عن المسائل التي تطرحها المستجدات العلمية بوضوح، وطبعاً يجب أن لا يكون ذلك مختلفاً جوهرياً عن طروحات باسيليوس الكبير وغيغوريوس بالاماس، الذين لم تعلقن قداستهما فحسب، وإنما ركزت مجامع مقدسة على صحّة تعليمهما وعلى أنّهما من آباء الكنيسة الكبار.

في هذه الدراسة حاولت عرض الأفكار الأساسية التي طرحها بالاماس حول علاقة الدين بالعالم من خلال مختارات من مقالتين من ثلاثياته في الرد على برلعام، المقالة الأولى من الثلاثية الأولى والمقالة الأولى من الثلاثية الثانية، وقد قمت بإعادة ترتيب هذه المختارات بحسب موضوعها بما قد يخالف تسلسل ورودها في الثلاثيات مع إضافة توضيحات بسيطة لهذه الأفكار ومحاولة إسقاطها على واقعنا اليوم.

قبل كل نص مقتبس من ثلاثيات بالاماس يوجد رقمين، الأول يدل على رقم الثلاثية والثاني يدل على رقم المقطع، وهو دائماً من المقالة الأولى سواء في الثلاثية الأولى أو الثانية، نص الاقتباس هو بالخط العريض والتعليقات المضافة بالخط العادي.

تمهيد

يفرّق بالاماس بين ثلاثة أنواع من الحكمة، حكمة شيطانية، حكمة طبيعية وحكمة إلهية. الأولى بحسب بالاماس خبيثة ومصدرها شيطاني بدون لبس، أما الحكمة الطبيعية فهي ما نسميه اليوم المعرفة العلمية. بمختلف أشكالها وهي تقوم على أسس منطقية من التعريفات والاستدلالات، أما الحكمة الإلهية فيعرفها بالاماس بأنها معرفة ما هو صالح ومرضي لله.

سوف نفضّل في ما يأتي بعض كتابات بالاماس حول كل نوع من أنواع الحكمة الثلاثة مبتدئين من الحكمة الشيطانية فالحكمة الطبيعية فالحكمة الإلهية.

الحكمة الشيطانية

يذكر بالاماس بعض الفلاسفة الإغريق ويصف فلسفتهم بالحكمة الشيطانية، وهو يؤكد بشكل جازم بأنه لا يقول ذلك عن كل الفلاسفة والحكماء اليونان، بل فقط أولئك الذين أعلنوا بصراحة بأنهم يتلقون الحكمة من الآلهة الوثنية وحتى من الشياطين.

٢-١٣ أوجد أكثر غباوة من هؤلاء القوم الذين يتباهون باطلاعهم على أسرار الشياطين وينسبون إليهم مصدر حكمتهم؟ لأن ما نقوله الآن لا نقوله عن الفلسفة عامةً إنّما على فلسفة هؤلاء.

ويؤكد كذلك على أنّ هذه الحكمة لا تناقض فقط الحكمة الإلهية بل كذلك الحكمة الطبيعية والمنطق البشري البسيط، ولعله كان يقصد أفلوطين وأتباعه الذين يقولون بفكرة النفس الكلية وأن الأجرام السماوية لها نفوس.

١٨-١ إن هذه الحكمة لا يمكن أن تدعى حتى حكمة "بشرية" ما دامت متناقضة إلى درجة تجزم معها بأن نفس الكائنات هي في الوقت نفسه حيّة وفاقدة للحياة، عاقلة وعادمة العقل، وتعلن أن كائنات لا تمتلك بالطبيعة إحساساً، ولا عضواً لهذه الملكة، تستطيع أن تحتوي نفوسنا!

يحذر ذلك بالاماس من حث هذه الحكمة التي تحاول التخفي في لباس الحكمة الطبيعية أو لباس الحكمة الإلهية.

١٠-١ إليك حادثة تكشف لك شيئاً من مدى الشر الرهيب الذي وقع فيه الفلاسفة الديويون: فإن الشّير وهؤلاء الفلاسفة الذين يستمدون منه مهارتهم في الشر قد سرقوا أحد تعاليمنا الأكثر نفعاً ويستخدمونه كطعم خطر لتمائل الألفاظ المستعملة: "احذر لنفسك" (تث ١٥ : ٩) و"اعرف نفسك". ولكن إذا بحثت عن غاية هذا التعليم لديهم وجدت لجة من الكفر. فإنهم يقولون بالتقمّص، فيعتقدون أننا لا نستطيع معرفة أنفسنا وفقاً لهذا التعليم دون أن نعرف الجسد الذي كُنّا مرتبطين به قبلاً، والمكان الذي كُنّا نقيم فيه، وما كُنّا نعمل فيه، وما كُنّا نصنع.

مع ذلك يمكن الاستفادة بشكل ما من هذه الحكمة التي هي بطبيعتها سيّئة.

١٥-٢ غريغوريوس اللاهوتي يقول أنه استفاد في أثينا من الضلالات الخرافية بعد أن هزئ بالشياطين حيث يعجب الناس بهم. ... فالشر نفسه يسهم مع الخير إذا استعملناه بنية صالحة.

هل يوجد اليوم مع هذا التقدم العلمي وانتشار التعليم والفكر المنطقي مثل هذا النوع من الحكمة الشيطانية؟ الجواب الغريب هو نعم بكل تأكيد، هناك مثلاً علم التنجيم وقراءة الغيب الذي ينتشر إعلامياً بقوة ويحاول أن يلبس بحث ثوب العلم الطبيعي حتى أنّ اسمه في الإعلام العربي أصبح علم الفلك! وكذلك نجد في الإعلام دعاية صريحة وقوية لمذاهب حديثة تنادي بما تسميه علماء، لكنّ العلم الذي تقصده ليس هو الرياضيات أو الفيزياء أو التاريخ أو غيرها من العلوم الطبيعية والتي ليست لها فائدة برأيها! بل أسرار عجيبة إذا خضنا في جوهرها ما وجدنا إلاّ لجة من الكفر. كثير من الملحدّين اليوم يحاولون أن يلقبوا أنفسهم بالعلمانيين، ومذهبهم بالعلمانية، وإذا خضنا فيه لا نجد ما يمكن أن ينسب إلى

العلم، أعني القوانين المستنتجة من التجريب والإحصائيات الدقيقة واعتماد وسائل التحليل المنطقي الدقيق وما مائل ذلك، بل مجموعة من الافتراضات التي لا أساس علمي لها يصبرون على أن يسموها علماً.

الحكمة الطبيعية

الحكمة الطبيعية (الفلسفة الطبيعية) في ذاتها ليست سيئة، لكن مع ذلك هناك من استخدمها بطريقة غير صحيحة، ويؤكد بالاماس على مبدأ يشكّل حساً عاماً عند المسيحيين حتى اليوم، وهو أنه لا شيء رديء بحد ذاته، وهذا أمر يمكن أن نسقطه بسهولة على تطبيقات العلم والتقنية التي تحيط بنا اليوم.

١-١٩ إذا قلنا أن الفلسفة الطبيعية عطية من الله نقول الحق ولا أحد يعارضنا، ولكننا بهذا لا نرفع الاتهام عن الذين استعملوها بشكل رديء وأحدروها إلى استهداف غاية تضاد الطبيعة ... ثم فلنذكر بأن ليس من شيء رديئاً بكونه ما هو، بل بجياده عن العمل الخاص واللائق به وعن الغاية المرسومة لهذا العمل.

وللحكمة الطبيعية بحد ذاتها هدف سام وهو التطلع إلى العلة الأولى مصدر كل الأشياء، ويرى بالاماس أن الذي لا يصل بالحكمة الطبيعية إلى استنتاج وجود خالق ومدبر للكون لا يستحق لقب فيلسوف.

١-١٧ إذاً، إن كان الفيلسوف الحقيقي يرتقي إلى العلة فالذي لا يرتقي إليها ليس فيلسوفاً حقيقياً ولا يقتني الحكمة ... إنها (الحكمة الهلينية) لا ترى أن لكل شيء علة دائماً!

١-١٦ الحكمة التي نفخها الخالق في الخلائق، من عرف أنّها مبعوثة من الله عرف الله الذي تنبى عنه. هذا يقتني المعرفة الحقيقية للكائنات وبالتالي حكمة الله. يصير خبيراً في حكمة الله. "كان ينبغي أن يرتقي الفلاسفة الحقيقيون من معرفة الكائنات إلى علة الكائنات" على حد قول ديونيسيوس العظيم.

الحكمة الطبيعية رغم أنّها ليست سيّئة بحد ذاتها إلاّ أنّه من الممكن أن تضلّ وتستخدم بطريقة خاطئة، وهذا ما قصده بولس الرسول حينما انتقد حكمة اليونانيين.

١-١٢ لذا يقول الرسول أنّها (حكمة اليونانيين) قد جهّلت، لا في تكوينها، لكن لأنّها تسعى إلى أمور هذا الدهر ولا تعرف الإله الأزلي ولا تريد أن تعرفه. فبعد أن سأل الرسول "أين مباحث هذا الدهر" أضاف مباشرة: "إن الله قد جهّلت حكمة هذا العالم" (١ كو ١ : ١٠)، أي أنّه أبان بعد ظهوره أنّها قد ابتعدت عن المعرفة الحقيقية.

١-١٣ لو قدرت على أن تتبين وتعلن حكمة الله في الخلاق، لو كشفت ما كان مخفياً، لو كانت أداة حقيقية لإزالة الجهل ... كيف كان جهّلتها من أعطى هذه الحكمة للخليقة؟ ... تخلّت عن الغاية التي تلائم مجرد حكمة بشرية. ليس فقط تخلّت عنها بل تاهت في اتجاه معاكس كلياً وهي تنابر على الكذب حاسبة إياه الحقيقة.

كذلك يمكن التطرّف في التعلّق بالحكمة الطبيعيّة، فهي مناسبة للشباب ولكن ليس من المناسب أن يصرف عليها الإنسان حياته حتّى الشيخوخة، ولربما يريد أن يقول بالاماس هنا أن الحكمة الطبيعية ليست غاية بحد ذاتها بل وسيلة لها غاية عملية في الحياة ولذلك بعد أن يتلقّنها الشبان يجب أن ينصرفوا إلى تطبيقها عملياً ليستفيدوا ويفيدوا الآخرين منها، فيما أنّ الغوص في العلم حتّى الشيخوخة لا معنى له لأن الإنسان يكون قد أضع حياته بدون أن يحقق أية فائدة من هذه الحكمة. من الجدير بالذكر هنا أنّ معظم النظريات الشهيرة في العلم قد وضعها علماء قبل وصولهم للخامسة والعشرين من عمرهم!

٢-٢٧ يقول (برلعم) "إن الله منذ أن خلق النفس أفعمها بالتصورات العقلية المشتركة والقدرة على التعريف والتمييز والاستدلال، التي وُجدت العلوم بفضلها. فالعلوم إذاً هي عطية من الله". ولكن بماذا هذا يبرر الذين يسيئون استعمالها ويتطرفون وينتهون، بفضل العلوم، إلى جعل إنجيل المسيح شيئاً غير كامل؟ فإنه لا يمكن تبرئة الفاسقين والنهمين بحجة أن الله، في البدء، عند خلق الجسد ونفخ النفس فيه، قد أعطاه قوة الإنجاب والاعتناء. هذا ما تحاول أقوالنا تلافيه: سوء استعمال العلوم

والتطرف في استعمالها وتوقيرها المفرط. ... ولن تسمح لذاتك بأن تشيخ وأنت منشغل بمثل هذه الأمور.

١-٨ (يستشهد بقول باسيليوس) "إنّ البعض الذين يكرّسون وقتهم في هذه الأيام لعلم الهندسة الذي اكتشفه المصريون أو علم الفلك الذي يكرّمه الكلدانيون، أو يهتمّون بصورة عامّة بالأشكال والظلال وعلم الظواهر الجوية، قد ردّلوا دراسة الأقوال الإلهية. وكثيرون منهم من جرّاء حرصهم على تلك الأمور قد شاخوا وهم يسعون إلى ما هو باطل. ينبغي إذاً أن تميّز بين الدراسات لكي نختار المفيد منها ونستبعد الغبيّة والضارّة."

١-٦ "المعرفة الدقيقة للأفلاك السماوية المتحركة والمتناسقة وخاصيّاتها هي أيضاً معرفة للخير والشرّ لأنّها لا تمتلك الخير في طبيعتها بل في نيّة الذين يستعملونها، وتحوّل بتحوّل هذه في هذا الاتجاه أو ذاك. وبالأولى أقول أيضاً أن ممارسة لغات مختلفة وظرافتها، وقوّة علم البلاغة ومعرفة التاريخ، وكشف أسرار الطبيعة ومناهج المنطق المتنوعة ومختلف وجهات نظر علم الحساب، والأقيسة المتنوعة للأشكال غير المادّية... الخ كل هذه هي في الوقت نفسه حسنة وردينة، ليس فقط لأنّها تتبع فكر الذين يستعملونها وتتخذ بسهولة الشكل الذي تعطيه إياه وجهة نظر الذين يقتنونها، بل لأنّ دراستها ليست حسنة إلا بقدر ما تنمّي في عين النّفس نظراً ثاقباً. ولكن استمرار من يتعاطى دراستها حتى الشيخوخة أمر رديء. الحل الصائب هو أن يتدرّب المرء فيها قليلاً ثم ينقل جهده إلى ما هو أسمي وأضمن بكثير، لأن الله يعوّض تعويضاً سخياً عن ازدراء الآداب."

أيضاً يقول بالاماس بأنّه على الرهبان أن لا يتلهوا بالحكمة الطبيعية بعد اعتناقهم الرهبنة لأنّهم قد نذروا حياتهم كلّها لله.

٢-٣٥ الربّ لم يمنع الدراسات الأدبية صراحة! ولكنّه أيضاً لم يمنع الزواج ولا أكل اللحم لا السكنى مع متزوجين. ... أمورٌ كثيرة يتعاطاها المسيحيون عموماً دون أن يدانوا، مع كونها محظورة على الرهبان كل الحظر بسبب سيرتهم الخاصّة.

٢-٣٥ الذين يشاؤون الاهتمام بها يستطيعون تكريس وقتهم لكل أنواع المعارف الأدبية قبل اعتناقهم سيرة الرهبان.

١-١٢ على هذا المنوال نحن لا نمنع أحداً أن يتلقن الثقافة الدنيوية إذا شاء، إلا إذا اختار السيرة الرهبانية. وكنا لا ننصح أحداً أن ينكبّ عليها حتى النهاية ونحظر إطلاقاً أن ينتظر منها أية دقة في معرفة الأمور الإلهية. إذ يتعذر أن يستمدّ منها أي تعليم أكيد عن الله.

الحكمة الإلهية

يضع بالاماس تعريف واضح لمعنى مصطلح الحكمة الإلهية، وأيضاً المعنى الروحي لمعرفة الكائنات التي هي معرفة سبب خلق الله للكائنات.

٢-٨ إن الحكمة الإلهية تستهدف في الأساس ما يلي: معرفة مشيئة الله وما هو صالح وكامل ومرضي لله. ... إن من يبحث عن مشيئة الله، ومن تبين السبب الذي دفع الخالق إلى إيجاد كل كائن، ومن يتصرف مع هذه الكائنات كلها وفقاً لتلك المشيئة الإلهية، إن هذا يعرف أسباب وجود الكائنات، هذا يقتني معرفة الكائنات.

وهنا يأتي ردّ بالاماس على فكر برلعام (والذي يعود إلى حدّ كبير إلى فكر ابن رشد) فالحكمة الطبيعية وإن كان لها فائدة شيء والحكمة الإلهية شيء آخر تماماً فالحكمة الطبيعية قد تدلنا على وجود خالق ومدبر للكون ولكنها لا تطهر الإنسان ولا تجعله يسمع صوت ضميره.

١-٣ "لأنك وإن درست الفلسفة الطبيعية كلها، منذ آدم حتى النهاية، فستبقى بدون النقاوة أحمقاً لا حكيماً. لكنك، ولو عدت هذه الفلسفة الطبيعية، سوف تقتني حكمة الله الذي غلب العالم، شرط أن تطهر نفسك وتنقيها من الشيم والاعتقادات الرديئة. "

٩-١ هل يمكن للمعرفة الناجمة عن الحكمة الدنيوية أن تطرد من النفس كل ما هو رديء ما دام ناتجاً عن الجهل، بينما لا تقوى معرفة التعليم الإنجيلي نفسها على ذلك؟ "لأن ليس الذين يسمعون التأموس هم أبرار بل الذين يعملون بالتأموس" كما يقول بولس (رو ٢ : ١٣)، والذي يعرف مشيئة الله ولا يعمل بها "سيُضرب كثيراً" (لو ١٢ : ٤٧ - ٤٨) أكثر من الذي لا يعرفها يقول الربّ ... "العلم ينفخ" (١ كو ٨ : ١).

وفي النص التالي جواب مباشر على فكر ابن رشد بالرغم من أن بالاماس لم يقرأ ابن رشد وربّما لم يسمع عنه إطلاقاً.

٥-٢ الحقيقة نوعان: الواحدة يفضي إليها التعليم الموحى به من الله، والأخرى تبحث عنها الفلسفة اليونانية ونادراً ما تجدها، وهي غير واجبة الوجود ولا تقود إلى الخلاص. فكيف يمكننا أن نجد حقيقة واحدة في الاثنتين معاً؟

٢٣-١ من أقوال باسيليوس الكبير في "التعليق على المزمور السابع": "لقد عثرنا على معنيين لكلمة "حقيقة": الأول يعني إدراك الطرق التي تقوم إلى الحياة السعيدة، والآخر المعرفة السليمة لإحدى ظاهرات الطبيعة. الحقيقة الأولى تسهم في خلاصنا: إنها حاضرة في قلب الإنسان الكامل الذي ينقلها إلى قريبه دون تحريفها، أما الأرض والبحر والنجوم وحركاتها وسرعتها فإن كنا لا نعرف الحقيقة الخاصة بها فإن هذا لا يمننا مطلقاً من الإقبال على الغبطة الموعود بها".

١٠-١٢ (يقول برلعام) "الصحة التي يعطيها الله لا تختلف عن الصحة التي تأتينا عن طريق الطب"، كيف يمكن القول بأن الطب والله يمنحان صحة واحدة هي عينها؟ لا يمكن التسليم بهذا التطابق إلا في ما يتعلّق بوجه ثانوي جداً من وجوه الصحة. لأن الفيلسوف لم يقو على أن يرى أن الشفاء والحكمة الآتين إلينا من الله يخصّان النفس أكثر ما يخصّان، بينما تلك الاكتشافات البشرية لا توجّه عنايتها البسيطة إلا للجسد وحده، ثم تبطل حال بييد الموت موضوع اهتمامها.

إذا يفرّق بالاماس بوضوح بين الحكمتين، الطبيعية، والإلهية.

٢-٢١ حكمة جسدية وحكمة روحية، حكمة قابلة للجدل وحكمة غير قابلة للجدل، حكمة

زائلة وحكمة أبدية.

يقرّ بالاماس بأنّ الكثير من القديسين لم يكونوا على سوّية علمية عالية وهذا بالتأكيد لا ينتقص من قداستهم، والمثال الذي يعطيه هو علم الفلك، حيث اعتقد قديماً أن الأرض مسطّحة وأنّ السماء هي قبة عالية من "الجلد" محاط بالماء، لكن كروية أرض كان أمراً معروفاً قبل عصر بالاماس بوقت طويل جداً^٣ وكان الفلك قد مضى خطوات كبيرة فعُرفت الكواكب ومداراتها، ومعظم القديسين من الرهبان غير المتعلّمين أو الذين تلقوا جزءاً يسيراً من العلوم لم يكونوا على اطلاع جيّد على تطوّرات علم الفلك أو غيره، إنّ هذا يدلنا أيضاً أنّه لا يجدر بنا أن نتمسك بأفكار علمية معيّنة لمجرد ورودها في كتابات بعض الآباء القديسين كانت قد أتت في معرض المثال أو التشبيه لإيصال أفكار لاهوتية، وهذا المثل يعطيه بالذات (تثبيت الأرض كالخيمة وإنشاء السّماء كالقبة) قد ورد في الكتاب المقدّس أيضاً (مثلاً في قصة التكوين وفي المزمور ١٠٣) وهذا الأمر بالتأكيد لم يغيب عن بال بالاماس ولكن ربّما لم يرد الإشارة إليه صراحة حتّى لا يتسبّب بعثرة لبعض الرهبان ضعيفي الثقافة، لكنّه يعني أيضاً أنه لا يجدر بنا التمسك بأفكار علمية معيّنة لمجرد ورودها في الكتاب المقدس، فهي قد كتبها أشخاص قديسون بوحى الروح القدس وباستخدام لغة العصر الذي كتبت فيه بهدف التشبيه لا أكثر لإيصال أفكار لاهوتية معيّنة لمن يقرؤها ويسمعوها.

المثير للاهتمام هنا هو أنّ بالاماس لا يرفض نتائج الحكمة الطبيعية في حال مخالفتها لأقوال القديسين أو للكتاب المقدّس، إلاّ أنّه يعتبر أن هذا بالتأكيد لا ينتقص من قداسة القديسين (وبالتأكيد لا ينتقص من عصمة الكتاب المقدّس اللاهوتية).

^٣ ربّما يعود تاريخ أول ظهور لفكرة كروية الأرض إلى العالم المعروف فيثاغورس في القرن السادس قبل الميلاد، واعتبر أمراً بديهياً بين الفلكيين الإغريق بعد ذلك.

٢-٣٦ وإذا جرينا على هذا المعيار (المعيار الذي سار عليه برلعام وهو أنّ الحكمة الطبيعية مقياس للقداسة) فكيف لا يكون معظم القديسين مملوئين بالظلمات وعدم الكمال: أعني جميع الذين، بالإجمال، لم يحصلوا العلم الهليني، والذين، بين الذين حصلوه، يثبتون العالم كالحيمة وينشئون السماء كالقبة... الخ

بخلاف ما يقوله ابن رشد بخصوص تفسير القرآن وفهم الشريعة في الدين الإسلامي، إنّ تفسير الكتاب المقدس لا يقوم على أسلوب تحليل فكري علمي مجرد مماثل لما هو مستخدم في العلوم الدنيوية بل على أساس موهبة ومعونة الروح القدس، وحتى لو استخدمت فيه أساليب التحليل المنطقي فهي للتوضيح ولا تتجاوز الحاجة إلى استلهاهم وحي الروح القدس.

٢-٦ في نقلنا للوسائل التحليلية، وسائل فلسفة العلوم الدنيوية، لأجل التحري عن الأمور الضرورية، وفي استخدامنا لبعض المبادئ التي يمدّنا بها التدريب الفلسفي في سبيل توضيح الكتاب المقدس، قد نخرج بكثير من السهولة عن الطريق السوي، إذا كنّا لا نقتني نعمة الروح القدس الذي هو المفتاح الوحيد للكتاب المقدس، وإذا لم ندع أنفسنا نقاد للأسفار الموحى بها عينها. فجليّ إذاً أن الحكمة الدنيوية تتحول على هذه الصورة وتنقل لتصبح مفيدة. لأنّ حكمة الروح القدس كاملة في حد ذاتها. أما الصلاح غير الحقيقي فيصبح هو أيضاً صالحاً في "الصلاح" الحقيقي.

٢-٢٨ "الإنسان البشري لا يقبل ما هو من روح الله، فإنّه حماقة عنده ولا يستطيع أن يعرفه." (١ كو : ١٤) لأنه يلج عن طريق الاستدلال في اللامدرك. ويعتقد بأنه يكتشف ويعلم كامل الحقيقة بالتميزات والاستدلالات والتحليلات، مع أنّنا لا نعرف بالاستدلال "ما أعطانا الله"، بل بالروح الذي فينا، " ما لم تره عين ولا سمعت به أذن ولا خطر تعلى قلب بشر، ذلك ما أعدّه الله للذين يحبّونه. قلنا كشفه الله بالروح، لأنّ الروح يفحص عن كل شيء، حتى عن أعماق الله" (١ كو ٢ : ٩ - ١٠)

يتميز بالاماس بين الموهبة الطبيعية والموهبة الروحية، الحكمة الطبيعية ترتبط بالأولى بينما الحكمة الإلهية ترتبط بالثانية، وهذه أيضاً من النواحي التي تختلف فيها الحكمة الطبيعية عن الإلهية.

١٢-٢ أما أنا فبعد أن قلت بوجوب فرز كل ما هو خرافي ومغلوط في الحكمة الدنيوية وطرحه، فإني أتابع وأؤكد أن المعرفة الناجمة عن الثقافة الدنيوية لا يمكن حتى في هذه الحال أن تدعى هبة روحية، بل هبة الطبيعة قد أنعم بها الله علينا بالطبيعة ونحن قادرون أن ننميتها بالتدريب. وهذا الأمر الأخير دليل واضح على أنها هبة طبيعية لا روحية. أنه لا يتلقاها أحد بدون تدريب. أما حكمتنا الإلهية فهي هبة من الله بالحقيقة قد منحها الروح القدس وليست هي هبة طبيعية. إذا اقتبلها من فوق صيادون بسيطون جعلتهم أبناء للرعء.

٢٥-٢ أنا أقول أن بعض عطايا الله طبيعية: إذ أنها تُمنح للجميع لا فرق، قبل الشريعة وفي الشريعة وبعد الشريعة، وأن غيرها فائقة الطبيعة، روحية وسريّة بنوع خاص. وأعتبر هذه الأخيرة أرفع منزلة من الأولى. ... وأقول أيضاً أن إحدى عطايا الله الطبيعية هي الفلسفة، وكذلك اكتشافات العقل البشري أي العلوم. ... إني أعرف أن عطايا إلهية كثيرة لا يدركها التفكير البشري، وإن كانت موهوبة في النظام الطبيعي، إلا أنني أسلم بالكرامة التي تلائم كلاً منها. فهي من جهة (الثانية) نعمٌ روحية، لأنها فائقة الطبيعة يمنحها الروح القدس مباشرة للمتَميِّزين في الفضيلة، وهي من جهة أخرى (الأولى) عطايا طبيعية. وأقول أن هذه الأخيرة بعيدة جداً عن أن تساوي النعم الروحية. وأن الله يهبها للجميع دون تمييز (تقريباً).

من الكلام أدناه يمكن استنتاج ما يعارض فكرة الإعجاز العلمي في الكتاب المقدس، فالكتاب المقدس موحى به من الروح القدس، ولكن ما يكشفه الروح القدس لنا هو فقط ما يخص خلاص النفس، وليست غاية الروح القدس أن يكشف لنا حقائق علمية جديدة أو غير معروفة.

٤٢-٢ إن الكمال الذي يخلص، في مجال المعرفة والعقيدة، هو في الموافقة على فكر الأنبياء والرسل وجميع الآباء، الذي تكلم الروح القدس فيهم بالتأكيد بشأن الله وخالقته. وعلى العكس من

ذلك، فالأمور التي أغفلها الروح واكتشفها آخرون هي غير مفيدة لخلاص النفس، وإن كانت صحيحة. لأن تعليم الروح لا يغفل شيئاً مفيداً. ولذا نحن لا نلوم من لا يوافقون على شيء أغفله الروح، ولا نهني من يمتلكون معرفة أعظم في هذا المجال.

الحكمة الإلهية بالنهاية هي أسمى بما لا يقاس من الحكمة الطبيعية، والتالي يلخص كل هذه الدراسة بطريقة جميلة جداً.

٢-١٨ إذا كان أحد لم يبق زماناً طويلاً غارقاً في الكتب وما شاخ وهو يدرسها، بل عرف الله حتى أنه ترك كل شيء وصار يقربه في النقاوة، فكم تكون نقاوته أعظم من نقاوة من يصنّف سائر الكائنات ويظن أنه يقتني معرفة شاملة، ثم يفرفر متقلّباً في هذا العالم ويستنفد، أو يكاد، كل الحبّ القادرة عليه نفسه، ولا يحبّ الإله المتسامي على كل شيء من كل نفسه ومن كل قلبه.